# استفتاء هام حول حضارة الصورة

## دورها في حياتنا وفوائدها واخطارها

نشرت مجلة « الانباء الادبية » Les Nouvelles Littéraires في اعدادها ١٤٥٦ الى ١٤٦٢ استفتاء هاماً شارك فيه عدد من العلماء والادبـاء والفنانين في فرنسا حول حضارة الصورة الفوتوغرافية ودورها في حياتنا وفوائدها واخطارها . وقد رأت « الآداب » ان تقدم تلخيصاً لهـذا الاستفتاء بقلم عائدة مطرجي .

### رأي جان روستان Jean Rostand ، العالم البيولوجي

انني احبذ وجود الصورة في خدمة العلم ، ذلك انها ادت له خدمات لا ينكرها احـد . فبواسطـة المكروسكوب الالكتروني استطاع العـالم ان يرى « السم النوعي » Virus والذرات Moléculse والمكروبات ، واخذ عنها صوراً حقيقية . كما تمكن بواسطتها ان يثبت افتراضات قـديمة وان يبني اخرى . وبالاضافة الى الصورة الحقيقية ، هناك ايضاً الصورة الرمزية المجردة التي تظل بالرغم من ذلك صورة ، كآلة تسجيل حركات القلب مثلاً Cardéograme وهي عبارة عن صور كهربائية تظهر نشاط القلب . وكلنا يدرك اهمية هذه الصورة في خدمة الابحاث العلمية .

ولا تنحصر هذه الاهمية في البحث وحسب بل تتعداه الى التعليم ايضاً .. وهنا تلعب السينما دورها الرئيسي مما ادى الى دخولها في معظم الجامعات . فمهما كان الشرح إضافياً لا يمكنه

من فيلم « لوث في سودوم »

ان يستغني عن الصورة ؛ والعبارة الشعبية هذه : « هل ارسم لك هذا ؟ » تثبت ان الناس كانوا دوماً بحاجة الى ان يروا . وهكذا اصبح باستطاعة التلامذة ان يشاهدوا الاشياء التي يسمعونها وان يروها متحركة .

وانتشر استعمال السينما في مجالات الجغرافيا والعلوم الطبيعية بنوع خاص . فالنسبة لطفل لم ير البحر من قبل ، تؤثر فيه صورة موجة اكثر مما يؤثر فيه شرح معلم مهما سما هذا الشرح . ولكي ننتبه الى الطبيعة لا يستطيع شيء ان يثيرنا اكثر من الصورة لانها تظهر تعقدها : هذا الخليط من الجمال والبشاعة ، من الحنو والوحشية من التوازن والاضطراب . ذلك انها لا تختار ، بل تمنح رؤية عادلة وجامعة . ولكن هنا بالذات يكمن خطرها . ان الصورة تفيد التعليم ولكن من الضروري ان تُتبع برسم يكملها ويلفت انظار التلامذة الى ما يجب ان ينظروا اليه .

على ان السينما لم تستطع بدقة ان تؤدي ما تتطلبه . وهذا يرجع الى اسباب تكنيكية محضة : فعندما اردت مثلاً ان تُشغل الشاشة بعين ضفدعة فوجئت بان هذا مستحيل : فالمسافة الواقعة بين « المكرو » و « المكروسكوبيك » كانت ممنوعة عني . ولقد تأسفت لذلك لانه يهمني ان اشدد على التفاصيل المتناهية في الدقة وان اجعلها مرئية . واذذاك يبدو جمالها مثيراً .

وبالرغم من هذا تظل السينما تغريني . وقد لاحظت ان باستطاعتنا ان نكتب بالصور خيراً مما نكتب بالكلمات . وبالفعل فان كتابي « الضفادع » يتضمن ثمانين صورة . واذا تأملنا الملاحظات التي حققها جان بول سارتر في فيلم « الحياة تبـدأ غـداً » والذي يوحي باهوال الحرب رأينـا ان دور الصورة يذهب الى ابعد من ذلك بكثير . فهنا تكمن محاولة فلسفية بصورة بارزة .

واعود الى النطاق العلمي ، الذي هو نطاقي . ان من يرى خلية تنمو يأخذ عنها انطباعاً تأثيرياً باستطاعته ان يغير نظرته لا العملية وحسب ، ولكن نظرته الجمالية والفلسفية ايضاً . فانني اذكر ان « روبير بروست » ، الذي كان جرّاحاً ماهراً ، قد قال لي ، بعد ان شاهد فيلماً عن انقسـام



٨٢

تفصيل تعبيري تجريدي ( تيزيستفيلم )

الخلايا السرطانية: « من الضروري ان تنظر الى هذه الاشياء لتفهم رومنتيكية الحياة » . فالعلم لم يثر فكره الطبي ولكنه غيّر افكاره الفلسفية في الكون . وهناك مثل آخر عن « لوبيك » Lopicque وهو عالم فسيولوجي للجهاز العصبي . فقد رأى فلماً يمثل حركة كرويات الدم بنوع خاص. ثم صرح ان لهذه الخلايا وعياً . ان للصورة اذاً اهمية فلسفية الى جانب اهميتها العلمية.

ولم نتكلم هنا الا في النطاق العلمي. فان للصورة رغم خدماتها اخطاراً ايضاً. فاذا طغت على العقل والفكر ، كان ذلك امراً سيئاً جداً . فاجمل الصور عندي واجمل الافلام لا تضاهي عبارة جميلة او شعراً جميلا .

**رأي اندره موروا** André Maurois **، الكاتب المعروف**

لقد اتسعت اهمية الصورة في حضارتنا حتى انها حاولت ، في حالات كثيرة ، ان تحتل مكان الكلمة . كان « غوتيه » في محادثاته يقول « اننا نكتب كثيراً جداً . وعلينا ان نرسم اكثر من ذلك . » على ان الرسم موهبة لا يستطيع الجميع ان يمتلكوها . ولكن الصورة تحل محله . انني شديد الاهتمام بالصور الفوتغرافية . فالصورة التي تمثل جميع المهن وجميع الطبقات الاجتماعية ، هي اكثر تعبيراً واقوى من كل شرح او تعليق . فالمصور يختار من الصور اهمها واكثرها نطقاً ، ثم ينسقها وفق ترتيب معين ، تماماً كما يفعل الفنان ، كالشاعر مثلا الذي يختار كلماته ثم يرتبها . وباستطاعتنا ان نستعمل الصور استعمالنا للكلمات ، وان نكتب بالصور . ولقد قمت بهذه التجربة اخيراً، عندما اعددت مقالاً في مجلة « الحقائق عن فرنسا» ففي بعض فصولها القيت بقلمي وتابعت العرض بالصور الفوتوغرافية . وكان علي ان اشرح الفوارق بين شمالي فرنسا وجنوبيها . وتتابعت الصور دون اي تعليق مني وكونت بنفسها جملا . ان باستطاعة الصورة ان تشفينا من التجريد ومن ذوق خطير في استعمال الكلمات غير الدقيقة ، الناقصة في التحديد ، ومن الثرثرة . فالصورة هي دواء الى حد ما . وهذا ما يدعونا الى التحفظ : فان اعطينا للصورة كل اهمية كان ذلك كبير الخطر . واننا لنقرب منه اليوم . يكفينا ان ننظر الى الجرائد والى الكتب المصورة . ويخيل لنا ان الصورة تكفي وحدها . ولكن المشاهد يظل دائماً سلبياً ، ويقنع في ان يري . وهذه الرؤية لا شي . فالذي يهم هو الفعل . ولكي تكتمل الفكرة ، يجب ان يكون دور الفكر دوراً ايجابياً وان يعود الى الكلمات ، فالتفكير هو صيغة والصورة يمكن لهـــا ان تحدث صدمة او تولد احساساً او تأملاً . ولكن هذا الاحساس وهذا التأمل لا يجديان نفعاً اذا لم يحثا الفكر على التدقيق فيها، وهنا يدخل دور الكلمة . فان استطاعت الصورة ان تكون دواء ضد استبداد الكلمة، فيجب ان تظل الكلمة سوراً ضد استبداد الصورة.

**رأي اندره شامسون** André Chamson **روائي معروف ومدير متحف**

بين جيلي ، جيل الرجال الذين هم في الخمسين من عمرهم، والجيل الجديد نهضة ثقافة جديدة تعود الى دخول الصورة في حياتنا كوسيلة او كغاية للمعرفة . كان ركب الحضارة ، فيما مضى، يرتكز على الكتاب المطبوع اي على الكلام. اما اليوم فقد اجتاحت الصورة الحياة الفكرية بالسينما والتلفزيون. ولا شك ان في هذه التغيرات ربحاً ظاهراً لانها ما تفتأ توسع كل يوم افق عالمنا ولكنها تحمل ايضاً خطراً ظاهراً . فالشباب الاميركي يمضي اوقاته امام شاشة التلفزيون اكثر مما يقضيها على مقاعد الدرس . وتغيرات كهذه تؤدي حتماً الى تغيير بنية الرجال العقلية ، وعادتهم في التفكير، وحتى عمل عقلهم . لا شك اننا نملك اليوم وسائل للمعرفة اكثر من قبل مما يسهل علينا هضمها . ولكن بينما كانت ثقافة الكلام تضطرنا الى المقارنة والنقد ، تميل ثقافة الصورة الى ثقافة لا تعترضها قابلية المناقشة . فالصورة تؤكد ، فهي كلية ؛ وهي لاجل ذلك تخيفني احياناً بالرغم من انني اعترف بفوائـــد الصورة في نطاق التعليم .

وان اقبال الجمهور على المعارض الفنية يبدو لي كمظهر من اكثر المظاهر لتأمين حضارتنا الصورية . ولم يكن هذا الأقبال في يوم من الايام اقوى واشمل مما هو عليه اليوم . فاستخراج الصور يخلق لدى المشاهد شوقاً لمعرفة المثال الاصلي . وانه لحادث كبير الاهمية . فأكثر الاستخراجات توفيقاً لا تمنع ان يكون للأثر الفني قيمة بمادته الخاصة وبوحدته ، فانه يحمل في طياته ، فيه وحسب ، بعضاً من وجود خالقه . انني اعتقد ان الجمهور الذي يقبل على المعارض انما يفتش عن هذا الوجود بالذات .

اننا اليوم في غمرة حضارة الصورة . ولكن يجب ان لا نتوهم ان هذه الحضارة، بما هي مرتكزة على تكنيكية حديثة ، تجديـــد مطلق . فالانسانية لم تعش دائماً على الكلام وعلى الكتاب . ان العصور القديمـــة



٨٣

اليونانية والرومانية ، وحتى القرن الوسيط ، عرفت جميعها ، ثقافة ذات قطبين : ثقافة ترتكز على الكتب المدونة ، وعلى الكتب الحجرية الجميلة ايضاً : المعابد والكاتدرائيات . و« توراة الفقير »مؤلف من الصور .

ولقد اثر فيّ ، دون ان اشعر بذلك، هذا الاحتكاك اليومي« بعالم الصور » الذي أعيش فيه . فأنا رجل هاتين الثقافتين . لقد كنت اكتب في عالم مظلم وانا اليوم ارى واكتب في عالم ملون . وحتى على صعيد التكنيك الروائي ،فانني مدين للسينما بالكثير .

## رأي بيار فرنكستل Pierre Francastel . استاذ علم الاجتماع والفن في « معهد الدراسات العليا » .

انه لمن الخطأ اعتقادنا بان حضارتنا قد تغيرت يوم اخترعت الصورة الفوتوغرافية . فان بدايتها ترجع الى نهاية مجتمعات « عصر النهضة » التي تطابق « دائرة المعارف » . فعصر النهضة ابتدأ مع « كريستوف كولومبس ».انه عصر الأكتشافات . فقد اكتشفت الارض وملىء بياض الخارطة،وكان ذلك في جميع المجالات.واقيم مؤلف ضخم يضم جميع محتويات العالم فكانت « الانسيكلوبيدي » .

ثم استثمرت المعطيات المكتسبة الى نهاية حدود الاستثمار . وهذا ما يميز حضارتنا الجديدة . وكان ذلك يعني تصنيع العالم،مما ادى الى توسيع العلوم توسيعاً هائلاً ، فكانت الاختراعات الميكانيكية في جميع الاصناف ومن بينها كانت الآلة الفوتوغرافية والسينما . هذه الاختراعات لا يمكنها ان تنسلخ من المجموع. واختراع الصورة المتحركة ما هو الا عنصر صغير من عناصر البحث العام عن الحركة .

وليس عصرنا، هو وحده، يعرف الصورة . فقد عرفتها جميع المدنيات. ولكن دورها كان في ان تشرح . ففي المجتمعات القديمة كان العمل الفكري وقفاً على اقلية محدودة، على طبقة اجتماعية مغلقة جداً كانت تتملك وحدها بسر المعرفة والفكر . ولم يكن الرسم ولا النحت الا تأويلاً مصوراً لاعتقادات ومبادىء . وقد القي هذا الدور ، اليوم ، على عاتق السينما والتصوير الفوتوغرافي . واذا تحرر الرسم والنحت من هذه المهمة ، فتوجها رأساً الى الفكر والخيال ، استطاعا ان يجدا نظاماً في المدلولات الخاصة بهما . واننا لنشهد اليوم هذه الحركة الواسعة .

وليست هذه المدلولات شبيهة بالكتابة الفكرية – المصورة التي كانت عند المصريين . فقد كان المصريون يستعينون بمدلولات حسية ليعبروا عن جملة مجردة عامة ، بينما الرسم الحديث هو اشارة تحمل معناها في ذاتها . وقارىء هذه الاشارة يصبح فرداً فاعلا . فلا يستطيع ان يعتمد الا على نفسه ليلتقط معناها . وعليه ان يعود عينيه ليقرأها . ويكفينا للدلالة على ذلك ان نتذكر الالوحات الانطباعية. فقدكانت غير مفهومة في بادىء امرها . وكانت الرؤية تضيع فيها . واما اليوم فهي ابعد من ان تتيه فيها وقد تعودت ان تدركها . وهذا حدث هام في اهم احداث عصرنا . وهذا التغير الكامل لرد فعل الرؤية يلعب دوراً هاماً الآن في جميع الصور ، حتى اليومية منها ، كالأعلانات مثلا .

فالفن الحديث قد بدل عالمنا ، وانني اعود فأكرر،ان علينا ان نرجع الى اكتشافات عصر النهضة لندرك معرفة الانسان .

## رأي ليون غيشيا Lion Gischia رسام شهير .

هناك لغات حية ولغات ميتة . ولا اظن ان القضية في الرسم تختلف عن ذلك . فجميع اشكال الفن لا تستمر كما هي : إن بعضها يموت لان عصره قد انتهى . فرسم « عصر النهضة » هو كاللاتينية لغة ميتة . ولن تجد اية فائدة في ترسم خطى « عصر النهضة » كما انك لا تنتفع في كتابة قصة باللغة اللاتينية . ذلك اننا نعيش في عالم ماهو بعالم هذا العصر؛ فهناك اليوم علاقة جديدة بين الانسان والعالم،فالانسان الذي يسافر في السيارة او في الطائرة ينظر الى العالم بعين جديدة . وباستطاعتنا ان نقول ان الحس كله قد تبدل اليوم رأساً على عقب . لنذهب الى السينما : فاننا نجد اشباحاً منبسطة لا حجم لها ولا لون ! انها تجريدات تنطق بصوت حقيقي . وهذا لا يثير دهشة احد . تصوروا الانفعال الذي يجتاحنا لو اخذت لوحة تنطق فجأة . والحادث نفسه تجدونه في التلفزيون . فانتم تجدون على الشاشة سيارة صغيرة رمادية ، مخططة ، تبعث صوت المحرك الحقيقي . ومع ذلك فانتم تقبلونها . ولنعد الى السينما : انتم جالسون على مقعد ، وعلى الشاشة تمرون دون توقف في المشهد العام للقصر مثلاً ثم الى النافذة ، في جمع من الاشخاص ،الى وجه مفرد او الى عين ،وترون وجه رجل ثم تشاهدون ظهره بعد لحظة دون ان يستدير . وفي مقاعدكم لا تشعرون لحظة ان العالم يتحرك وان الارض تنسرب من تحت اقدامكم . لقد اعتدتم ذلك . والجمهور يعيد بناء الفضاء الحقيقي المشوه لفكرة دون اي مجهود . لقد اعتاد هذه اللغة الجديدة .

والحادث نفسه ينطبق ايضاً على المسرح . فلقد اصبح خيال الجمهور دقيقاً حتى بات من الممكن بواسطة بعض عناصر الديكور المسرحية ان نتمثل ، دون اي مجهود ، الديكور كله . فاذا قدّم له مقعد ، رأى غرفة ، وان قدم له غصن رأى حديقة . وفي القرن التاسع عشر كان الناس يأتون الى المسرح ليسمعوا . لقد كان عصر التجريد الفكري . اما اليوم فان العين تلعب دورها . اننا نتصل بالمشهد باعيننا اتصالنا بآذاننا . ولباس الممثلين لا يلعب دوراً في الديكور وحسب ، بل ان له مدلولاً بذاته .

ولابد ان يعتاد الجمهور ، بعد وقت ما،على الرسم المعاصر. فمنذ خمسين عاماً كان التكعيبيون غير مفهومين . اما اليوم فان الامر على خلاف ذلك .



٨٤